

حوار

في قدرة الإنسان على تحقيق إنسانيته

شخصيات المحاوره:

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة تملك فكراً ليبرالياً وتؤمن بأن الحرية والعدالة أشياء تستحق أن يناضل الإنسان من أجلها.

سليمان: مثقف يحمل لواء العقل، وسيادة قوانينه.

حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبب.

فاتن : راقصة باليه ومغنية أوبرا.

نورما : أستاذة جامعية.

صونيا: أهلاً بكم كوكبةً من المثقفين الموشحين بالأدب والفنّ والشعر والفلسفة. أنتم في ربوع منتدى هاجسه الأكبر قدرة الإنسان على تحقيق إنسانيته. تتباين الآراء وتتشعب الوسائل ويبقى السؤال مطروحاً وبالبحاح. كيف يستطيع الإنسان أن يحقق إنسانيته؟

حسام: هبوني حديقة ورد وياسمين، وغروباً يشلح على الأفق أرجواناً وياقوت، ونايماً تسيل أنغامه جداول دفء وحنان، وصبيّةً يتلوى خصرها المغناج وينهد ثديها حتى يناطحان السحاب. وخذوا مني أشعاراً ملونةً، وأفكاراً متوهجةً، فالإنسان لا يحقق إنسانيته إلا بالخلق والإبداع.

سليمان: مايقو الإنسان أنه أنسانٌ عاقلٌ، إنه يملك نفساً عاقلةً تستطيع أن تعقل ذاتها وتعقل سائر الموجودات وتعقل الكليات المجرّدة، وخاصة العقل، هي التفكير ولهذا قال ديكرت أنا أفكر إذن أنا موجود.

نورما: معنى كلامك أنّ الإنسان الذي لا يفكر إغترب عن ذاته فهو في واد وذاته في واد آخر.

فاتن: دعوني أتخيّل نفسي تلك الصبيّة الحسنة التي تتلوى غنجاً ودلالاً وتتحدى السحاب بأنوثتها الراضة للقيود والحدود.

صونيا: إذا تخيلنا وجود هكذا صبيّةً حسنة فوجودها يكون عبثياً إذا لم يكن هناك رسامٌ إبداعيٌّ يجسد أنوثتها الحيّة على القماش أو شاعرٌ يرسم رفضها وتحديها وغنجها ودلالها بالكلمات. وجود الشيء منعزلاً عن تفاعله مع الآخرين وتفاعل الآخرين معه يغدو وجوداً عبثياً في حكم اللاموجود.

حسام: الإنسان بوعيه ولا وعيه كائنٌ فان يحلم بالخلود، فخصر فاتن المتلوي مهما كان مغناجاً ويزرع الإغراء والنشوة حتى في قلب الحجر هو خصرٌ فان إذا لم يجسده شاعرٌ بقصيدة تتحدى الفناء. إنها الكلمة في مجد خلودها لأنها تجسّد للعقل الكليّ سيّد هذا الوجود ومنظمه ومدبّر شؤونه بناءً على قوانين كل سبب فيها يتبع سببه.

سليمان: تساءلت نورما إن كان الإنسان الذي لا يفكر إنساناً مغترباً عن ذاته، نعم هو مغتربٌ عن ذاته، إنّه غير ذاته وهذه أحجيةٌ علينا أن نحلّ ألغازها. كيف يغدو الإنسان غير ذاته؟ كيف يلغي الإنسان ماهويته ككائن عاقل مفكر ويرضى أن يعود إلى منزلة الحيوان الأعجم الذي لا يهمله إلا جهازه الهضمي وجهازه التناسلي.

حسام: عندما سيُقطّ المقدّس على الدنيوي بحجّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تصادر المرجعية التي تتولى ذلك التسقيط عقول الناس وتمنعهم من التفكير الحرّ الإبداعيّ.

صونيا: ويصبح كلّ إبداع ضلالاً وكلّ ضلال في نار جهنّم.

فاتن: وتصبح المرأة أنثى والرجل ذكراً وتغدو العلاقة بينهما نهماً وشبقاً واهتياجاً وشوقاً إلى الإغتصاب لأن من يستطيع أخذ الشيء إغتصاباً لا يأخذه سؤالاً وحواراً. وعندها يختفي الإنسان من على مسرح الوجود.

نورما: إنسان بطبيعته كائنٌ مفكرٌ مفطورٌ على الملاحظة والتجربة والتأمل وأخذ العبر فإذا امتنع عن التفكير فلأنه يوجد قوى عاتية غاشمة خارجية قد أخذت بتلابيبه ومنعته عن التفكير. قال حسام بأنّ إسقاط المقدّس على الدنيوي هو السبب المباشر في مصادرة تفكير الفرد. أنشخصياً فكرت بهذه المسألة وقلت مرّة لنفسني إذا كان الله أقرب إلينا من حبل الوتين فما من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم فمعنى هذا أنّ المقدّس موجودٌ في داخل ذواتنا وما علينا إلا أن نقوم برحلة إلى أعماق أعماقنا إلى جواهر نفوسنا العاقلة ونقرأ ما انطبع على مرايا جواهر تلك النفوس منذ بدء التكوين حتى نعرف حقائق إنسانيتنا ونتناغم مع هذه الحقائق.

سليمان: مشكلة إسقاط المقدّس على الدنيوي أنّ إسقاطاً إستنسابعياً إنتهازيّ ضخم قضايا الخطايا الجنسيّة حتى جعل منها البداية والنهاية وأشاح بوجهه عن قضايا أكثر جوهرية كقضيّتي الحرية والعدالة. فباسم الخطايا الجنسيّة أعتبر الإنسان مذنباً حتى يثبت العكس " إنه ابن الخطيئة " فالرجل يشتهي كلّ نساء الكون ويخطط لاغتصابهنّ حتى يثبت العكس، والمرأة تتنافق وتحتال وتظهر غير ما تبطن وتبتزّ وتغري حتى يثبت العكس. وإثبات العكس هو حبس المرأة في بيتها وبأزياء معيّنة

بحجة أنها عورة. وتخويف الرجل من أحاسيسه ومشاعره وكأن ذلك ليس إلا وسوسة الشيطان في صدره. رأيي الحاسم في هذا الموضوع أن المقدس يبقى دائماً مقدساً وفي وهج شفافية قدسيته، ولكن إخفاء روح المقدس وإسقاطه على الشؤون الدنيوية جسداً بلا روح، مجرّد أوامر ونواه وطقوس وتكاليف. هو الذي حوّّل المقدس إلى شبه شعارات أيديولوجية ممضوغة ومعلوكة، والمرجعية المسقطة تستعمل تلك الشعارات لأغراضها كيفما شاءت. وهذه الأغراض ليست إلا مصادرة عقول الناس ومنعهم من التفكير الحرّ. فكلّ شيء قد تمّ إنجازه سابقاً ولم يعد هناك من حاجة إلى أيّ تفكير. ولذلك اعتبر التفكير بمثابة هرطقة ومروق وعمول أصحاب الفكر على أساس أنهم هرطقة مارقون.

صونيا: لا يوجد في المقدس أوامر ونواه. فالأوامر هي طلب والنواهي هي تحذير، والمقدس حثنا على النظر إلى الأمور بعيون بصائرنا وأخذ العبرة. وهل يعتبر الإنسان إلا إذا لاحظ وجرب وعلّل وفسّر واستنتج؟ وهل هذا إلا التفكير وعمل العقل؟

فاتن: دعوني أعبر عن رأيي على طريقتي، أنا عندما أقف على خشبة المسرح أرقص، أحسّ بتألف أعضاء جسدي لتحقيق هدف واحد هو إرضاء آلهة الفنّ وإدخال السعادة إلى قلوب المشاهدين. وكذلك عندما أغني أشعر بالحروف والكلمات تتصاعد من فمي متناسقةً متناسمةً، أشعر بأنني واللحن قد توحدنا في كيان واحد غير قابل للثنائية والإزدواجية، في هذه اللحظة هل تصدقون بماذا أشعر؟ أشعر بأنّ الجمال هو المقدس، أشعر بأنّ كل شيء متناسقٌ متناسقٌ هو شيءٌ مقدس. أشعر بأنني أغني وأرقص أمام موجود غير مرئيّ ولكني أحسه بكل ذرّة من كياني وأحسّ بقدسيته وأحسّ بأن ما أقوم به هو مجرد قرابين أضعها أمام أقدام هذا الموجود المقدس غير المرئيّ.

صونيا: أنا لا أشكّ أنّ أول من ابتدع الرقص والغناء كان عاشقاً متيماً بالذات الإلهية. وأنّ ما قام به من رقص وغناء كان بمثابة إبتهالات وتسابيح لتلك الذات. ولكن اليوم وفي عصر الإستهلاك الجائع دائماً إلى مزيد من الإستهلاك أصبح كلّ عمل خلفيته شهوانية هدفها كسب المال والجاه والعزق في ترف الملذات.

حسام: إنني لأتعجب كيف أن الناس في هذا الشرق العتيق تلفظ بعض الكلمات مثل شهوة ولذّة وغريزة وكأنها كلمات تختزن الإثم والعار أو كأنّ الإنسان المستقيم يجب ألا يتفوّه بهذه الكلمات إلا من باب التعبير عن السخط والإحتقار. ألا تعلمون أنّ الشهوة فضيلة وليست رذيلة إذا استعملت من أجل الغاية التي وجدت لها. ألا تعلمون أنّ اللذة هي تعبيرٌ عن إغْتباط الكائن بنفسه لأنه أنجز عمله كما يجب أن ينجز ذلك العمل؟

سليمان: هذا رأيٌ صحيحٌ ودقيقٌ ومعياره تناغم عمل الكائن مع قوانين الطبيعة وقوانين العقل.

صونيا: وهل معنى ذلك أنّ كلّ عمل متناغم مع قوانين العقل وقوانين الطبيعة يعتبر عملاً فاضلاً وكلّ عمل متناقض مع تلك القوانين هو خطيئةٌ يولد الألم والشعور بالخزي والعار؟

نورما: أفهم من كلّ ذلك أنّ الإنسان الكائن العاقل بالفطرة إذا لم يؤدّ وظيفة العقل التي هي التفكير الحرّ وأخذ القرار المسؤول يكون مخالفاً لقوانين العقل وقوانين الطبيعة، وبالتالي يكون كائناً غير فاضل ويرتكب الخطيئة وخطيئته جوهرية وليست عرضية لأنها تجعله يغترب عن ذاته أي تجعله يتنازل عن ماهويته كإنسان.

حسام: ما قالته نورما يدلّ أنّ أكبر خطيئة يمكن أن يرتكبها الإنسان هو امتناعه عن التفكير وأخذ القرار الحرّ المسؤول. وأنّ هذه الخطيئة لا يمكن مقارنتها بخطايا الوصايا العشر. لأنّ الإنسان إذا زنى أو سرق أو كذب لا يفقد ماهويته كإنسان، أما إذا امتنع عن التفكير لسبب أو لآخر فإنه يفقد ماهويته الإنسانية. وهنا أعود إلى مسألة إسقاط المقدّس على الدنيوي. كيف أن المقدّس وضع الزنى والسرقه وشهادة لزور في المراتب الأولى من الخطيئة وتجاهل الخطيئة الإمتناع عن التفكير سواءً لسبب داخلي أو خارجي. ليس هذا معناه أنّ الزنى والسرقه وشهادة الزور ليست أخطاءً فادحةً لأنها تساهم في تخلخل وربما تحطيم العقد الاجتماعي وتفشّل الإنسان في اعتباره كائناً إجتماعياً يتوق دائماً إلى العدالة ويسعى لتجسيدها واقعاً على الأرض.

سليمان: ولكنكم تجاهلتم حتى هذه اللحظة أنّ السبب الأكبر لامتناع الإنسان عن التفكير والتغريب عن ذاته هو تخويله وترهيبه من قبل أنظمة استبدادية شمولية تحتقر العقل الفردي وتهيم عشقاً بالعقل الجمعيّ وتعتبر أنّ ما يقوله الحاكم فيها هو التجسد الوحيد للعقل الجمعيّ.

صونيا: معنى ذلك أن حكام الأنظمة الإستبدادية الشمولية يقولون للناس لا تفكروا نحن نفكرّ بالنيابة عنكم لأنكم ببساطة لا تعرفون ماذا تريدون بل نحن وحدنا نعرف لك. ولا تعرفون أيضاً ماذا يسعدكم وماذا يشقيكم وماذا ينفعمكم وماذا يضرّكم وماذا يعزّكم وماذا يذلّكم نحن فقط نعرف ذلك.

سليمان: بل يقولون لهم حذار أن تمتلكوا عقولاً فرديّةً فهذه خيانةٌ للعقل الجمعيّ، وكل خيانة نحن مضطرون، حفاظاً على مصلحة الجماعة وكرامتها، أن نعاقب أصحابها سجنًا وقتلاً وسحلاً.

نورما: وبذلك يصبح السجن والتعذيب والقتل والسحل أعمالاً شريفةً فاضلةً غايتها خير الجماعة وصيانة مصالحها وكرامتها من أيّ مكروه.

صونيا: وتلتقي مصلحة حكام المقدّس مع حكام الدنيويّ في تجريد الإنسان من عقله الفردي وتحويله إلى رقم في جدول حسابات العقل الجمعيّ.

فاتن: أنا لا أصدق ذلك... فالله عندما خلق الإنسان أعطى كلّ فرد بصمة يده الخاصة به وبصمة عينه الخاصة به وبصمة نفسه الخاصة به. فكيف يمكن أن يجرّد الإنسان من بصمة عقله الفردي الخاصة به؟

حسام: إنّهُ الشرق العتيق يا صديقتنا فاتن شرق الزوايا والتكايا والجواري والغلمان شرقٌ حكمه المماليك والخصيان والأرنائوط والبين بين.

نورما: أعتقد أنّ ديكارت عندما قال أنا أفكر إذن أنا موجود نسي أنّ التفكير وحده لا يكفي إذا لم يقترن بالقدرة على الاختيار الحرّ دون تخويل أو ترهيب أو حتى ترغيب. إنها مسألة الحرية المرادفة دائماً وأبداً لمسألة العقل والتي وحدها تجعل الإنسان هو ذاته وليس هو غيره.

صونيا: أن نكون قادرين أن نفكّر بصوت عال مرتفع يصل إلى كلّ الأذان هو أن نكون نحن ذواتنا وليس ذوات غيرنا.

فاتن: بل أن نكون قادرين على تجسيد أفكارنا أعمالاً على أرض الواقع دون ضغوطات تمنعنا من ذلك وتكبتنا وتحولنا إلى أناس مزدوجين ظاهرهم شيءٌ وباطنهم شيءٌ آخر.

سليمان: القصة متشابكة ومتداخلة ويجب النظر إليها من كلّ جوانبها وليس من جانب واحد. أنا أفكر يعني أنا كائنٌ عاقل. أنا قادرٌ أن أختار دون ترهيب أو ترغيب يعني أنا كائنٌ حرٌّ وأنا أختارُ اختياراً حرّاً يعني أنا مسؤولٌ عن اختياري الحرّ أمام نفسي وأمام الطبيعة وأمام المجتمع. وهنا ترتبط الحرية بالمسؤولية والمسؤولية بالحقبة فالإنسان الذي يقدم أفكاراً مغلوطةً فاسدةً لا تستقيم لمنطق العقل ولا تراعي قوانين الطبيعة ولا تهتم بالعقل الاجتماعي. هكذا إنسان يغدو إختياره حرّاً بشكله الخارجي ويفتقر إلى الحرية في مضمونه وجوهره. فالحرية الحقيقية هي في التناغم مع منطق العقل وقوانين الطبيعة والقوانين الاجتماعية العادلة.

حسام: ولكن الحقيقة هي دائماً وحدة وصراع أضداد ماذا نقول للأضداد التي تتصارع باستمرار داخل وحدة الحقيقة؟

سليمان: هذا قانونٌ عقلائيٌ منطقيٌ لأن الحركة هي جوهر هذا الوجود والحركة معناها الإمكانية الدائمة للتطور.

نورما: معنى ذلك أن لا شيء ثابتٌ وساكنٌ وكلّ شيء هو في حركة دائمة ومستمرّة.

سليمان: دعينا نقول أن الثبات الذي يعطي للشيء تماسك وجوده هو في توازن حركة صراع الأضداد.

فاتن: أفهم من ذلك أن الحقيقة دائماً متحركة وهي تفتقر إلى صفة الثبات.

سليمان: بل معنى ما أقول أنّ الحقيقة هي في فهم قوانين الحركة وفهم قوانين صراع الأضداد وحصول التطور إرتقاءً أو إنتكاساً. بل إنني أقول أكثر من ذلك إذا انتظمت الحركة تمظهرت بمظهر السكون وهي في جوهرها متحركة فظننا أنها سكون. وهكذا تكون حركة الحرية إذا انتظمت بقوانين العقل ظنناها سكوناً. وهذا الإنتظام هو الذي يجعل حركة الحرية تنجب الطمأنينة والعدالة سواء داخل نفس الإنسان الفرد فتستقيم العلاقة بين العقل والعاطفة والغريزة. أو في شرايين المجتمع فتستقيم العلاقة بين الطبقات والإتنيات والطوائف والأحزاب والعائلات تحت إطار الخير العام للجميع.

صونيا: كل ما فهمته من هذا الكلام أنّ الإنسان عندما تصادر حريته يفقد ماهويته كإنسان ويتغرب عن ذاته ويغدو غيره. تماماً كما يحصل ذلك عندما يصاد عقل الإنسان ويمنع من التفكير والتعبير.

حسام: التوازن الجميل في كلام صونيا لا يضارعه إلا التوازن الجذاب في تقاطيع جسدها. وهذا يجعلني أكثر إصراراً بأنّ الجمال هو الحقيقة الوحيدة المطلقة والثابتة في هذا الوجود. وما عدا ذلك جميعه متحركٌ متغيرٌ يفتقر إلى الثبوتية.

نوما: بل هذا يجعلنا أكثر إصراراً بأنّ التوازن والتناغم الذي هو الجمال بعينه. هو أيضاً الحقيقة بعينها والعدالة بعينها. بل هو الألوهة الأبدية في ملامستها للموجودات الزمنية.

فاتن: لقد تغافلتم عن أنّ الإنسان كائنٌ إجتماعيٌّ بالفطرة ماهويته المعاشرة، فهو لا يستطيع أن يرى ذاته إلا على مرايا الآخرين. قد أكون أعلمكم جميعاً بهذا الموضوع لأنه يدخل في صلب عملي. عندما يتليني الله بمشاهدين ومستمعين متخشبي الأذواق إنتفخ غرورهم بانتفاخ أرصدتهم في البنوك. ينظرون إليّ وكأنني جاريةٌ في بلاط سلطان أقصى أمنيةً عندها تنال رضى سيدها بالحقّ أو بالباطل. في هكذا أحوال أشعر بتخشب أعضاء جسدي وبأنني لم أعد ذلك السهم النوراني المنطلق إلى الأعلى. بل أشعر بثقل أردافي يشدني إلى الأسفل وأشعر وكأنني أقف عاريةً تماماً أمام قطيع من النخاسين.

حسام: هذا شعورٌ صادقٌ لأنَّ المعاشرة بين الأفراد والجماعات لا تستقيم في مجتمع العلاقة فيه بين مؤسسة الدولة والأفراد والجماعات لا تقوم على مبادئ الثقة والإحترام والسعي المشترك لتحقيق الخير العام. بل هي علاقة ترغيب وترهيب أساسها الكذب والإرتياب والشك والهواجس والنفاق والباطنية.

صونيا: لنكن أكثر وضوحاً ونقول أنَّ العلاقة بين مؤسسة الدولة والأفراد والجماعات إذا لم تقم على قوانين نبنت من قاعدة المجتمع بواسطة ممثليه النخبويين الحقيقيين، وأعتقد الجميع بأنها قوانينٌ عادلةٌ استلهمت الحقَّ والخير والجمال وتخدم الخير العام والتطور والإرتقاء وإطاعتها سعادةٌ للجميع لأن عقل الجماعة الحرَّ المسؤول هو الذي صاغها دون خلفيات أو ضغوطات. عند ذلك يكون الخوف والقهر هو القانون المتحكم بسلوكية الناس والذي لا يفرز إلا الكذب والمنافقة والحد.

سليمان: وعندها تصبح أخلاق الناس أخلاق عبيد كما قال نيتشه وليس أخلاق أسياد أحرار وأخلاق العبيد لا يهتما التمييز بين الحقِّ والباطل، بين الظلم والعدالة، بين الخير والشرِّ، بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة. بل كلُّ ما يهتما هو إرضاء أسيادها وإرضاء عقدها النفسية.

حسام: وفي هكذا أجواء يعود الخوف ليعطل عمل العقل فيعود الإنسان ليغترب عن ذاته ويغدو غير ذاته.

صونيا: فنَّ المعاشرة جوهر نجاحه هو الصدق. فالإنسان يجب أن يكون صادقاً مع نفسه ومع الآخرين. الصدق وحده هو الذي يجعل الإنسان الفرد يشعر أنَّ كرامته جزءٌ من كرامة مجتمعه، وسعادته جزءٌ من سعادة مجتمعه، وأنه بقدر ما يحافظ على سلامة المجتمع ويسعى إلى تطويره بقدر ما يحافظ على سلامة ذاته ويسعى إلى تطويرها.

سليمان: المعاشرة التي تكرر الإنسان كائناً إجتماعياً هي معاشرة الأحرار الشجعان العقلاء الذين إذا فكروا يفكرون بأصوات عالية مرتفعة. وإذا تصرفوا يتصرفون تحت وهج الشمس وسطوعها لا في ظلام الأقبيبة والكواليس. هؤلاء الناس لا

يعرفون الكذب لأن الكذب وليد الخوف والإرتهان. ولا يعرفون المناقفة لأن ظاهرهم هو نفسه باطنهم، ولا يعرفون الأنانية لأنهم يدركون أن الكلّ في الواحد والواحد في الكلّ. هؤلاء الناس يعشقون الحرية ولذلك هم حريصون على حرية الآخرين. لقد عرفوا أنّ الحياة ليست شهوات وشبهات وعقد نفسية بل هي شفافية وعطاء وعفة ومعزة. هؤلاء الناس عرفوا أنّ الله متربعٌ على عرش قلوبهم أقرب اليهم من حبل الوريد فتشبهوا بالله خلقاً وإبداعاً. ليسوا مقلدين ولا متصنمين ولا عالكي صوف إنهم مبدعون يمارسون أعمالهم بفرح كأطفال يلعبون.

صونيا: فلنمارس أعمالنا بفرح كأطفال يلعبون نفيض مرحاً ونشاطاً ونستبشر الخير.

حسام: الفرحة الجماعيّ هو دائماً الفرحة الطاهر الشفاف الذي يقع موقعاً جميلاً في عيون الربّ. أنا أكره الفرحة الفرديّ الذي يمارس وراء الأبواب المغلقة ذلك ليس فرحاً إنهجود لذّةً عابرةً.

فاتن: الفرق واضحٌ بين الفرحة واللذّة، أنا أعرف من ينظر لي بفرح وأنا أغني وأرقص ومن ينظر لي بلذّة شهوانية تشبه الإفتراس.

سليمان: بالفرحة العاقل الحرّ المسؤول الجماعيّ تبنى الحضارات التي تستحق أن تعيش تحت شمس الحقيقة.

كمال يوسف سري الدين

